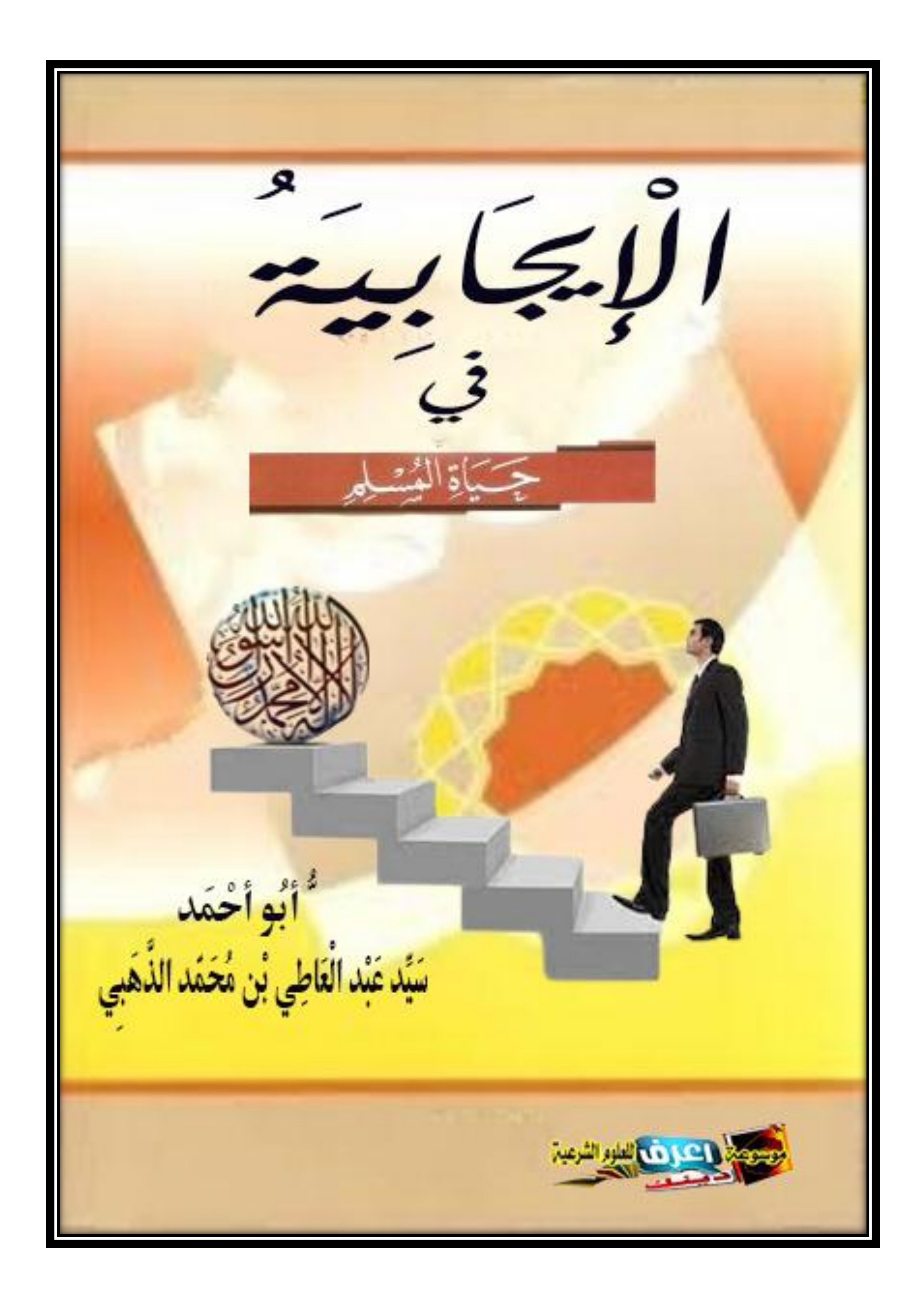


الْإِيجَابِيَةُ
فِي
حَيَاةِ الْمُسْلِمِ
أَبُو أَحْمَد
سَيِّد عَبْد الْعَاطِي بْن مُحَمَّد الذَّهَبِي

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ للهِ خَالِقِ الدُّجَى وَالصَّبَاحِ، وَمُسَبِّبِ الْهُدَى وَالصَّلَاحِ، وَمُقَدِّرِ الْغُمُومِ وَالْأَفْرَاحِ. عَزَّ فَارْتَفَع، وَفَرَّقَ وَجَمَع، وَوَصَلَ وَقَطَع، وَحَرَّمَ وَأَبَاح. مَلَكَ وَقَدَّر، وَطَوَى وَنَشَر، وَخَلَقَ الْبَشَرَ، وَفَطَرَ الأشْبَاحَ. رَفَعَ السَّمَاءَ، وَأَنْزَلَ الْمَاءَ، وَعَلَّمَ آدمَ الْأَسْمَاءَ، وَذَرَى الرِّيَاحَ. أَعْطَى وَمَنَح، وَأَنْعَمَ وَمَدَح، وَعَفَا عَمَّنِ اجْتَرَح، وَدَاوَى الْجِرَاحَ. عَلِمَ مَا كَانَ وَيَكُونُ، وَخَلَقَ الْحَرَكَةَ وَالسُّكُونَ، وَإِلَيْهِ الرُّجُوعُ وَالرُّكُونُ، فِي الْغَدِ وَالرَّوَاح. يَتَصَرَّفُ فِي الطُّولِ وَالْعَرْضِ، وَيَنْصِبُ مِيزَانَ يَوْمِ الْعَرْضِ:{اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ}.(النُّور:٣٥).وَأَشْهَدُ أَنْ لَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الْكَرِيمُ الْفَتَّاحُ،وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا جَنَّ لَيْلٌ وَتَنَفَّسَ صَبَاحٌ. أَمَّا بَعْدُ:

•فَالْمُسْلِمُ الْحَقُّ هُوَ الَّذِي يُحَقِّقُ الْغَايَةَ مِنْ خَلْقِهِ وَهِيَ الْعِبُودِيَّةُ لِلَّهِ تَعَالَى الْقَائِلِ فِي كِتَابِهِ:{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}.(الذَّارِيات:٥٦).،وَالْعُبُودِيَّةُ تَقْتَضِي الْإِيجَابِيَّةَ وَإِعْمَارَ الْكَوْنِ،فَالْمُسْلِمُ إِيجَابِيٌّ بِطَبْعِهِ يُشَارِكُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ بِكُلِ مَا يَسْتَطِيعُ، وَبِقَدْرِ مَا يُمْكِنُهُ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ فِي آخِرِ لَحَظَاتِ الْحَيَاةِ، وَمِثَالُ ذَلِكَ مَا جَاءَ فِي قِصَّةِ الْغُلَامِ الْمُؤمِنِ الَّذِي كَانَ سَبَبًا فِي إِسْلَامِ أُمَّةٍ بِمَا يَحْمِلُ مِنْ إِيجَابِيَّةٍ، وَبَذَلَ كُلَّ مَا يَسْتَطِيع حَتَّى بَذَلَ رُوحَهُ الَّتِي بَيْنَ جَنْبِيهِ.

–فَقَدْ أَخْرَجَ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ–رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى–فِي صَحِيحِهِ بِرَقْمِ (٣٠٠٥)مِنْ حَدِيثِ صُهَيْب بْن سِنَان الرُّومِيِّ–رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ–قَالَ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–:{كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ، قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ، فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ، فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ، فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ، فَأَعْجَبَهُ، فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ



إِلَيْهِ، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ، فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ، فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ، فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ آلسَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟ فَأَخَذَ حَجَرًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا، وَمَضَى النَّاسُ، فَأَتَى الرَّاهِبَ فأخْبَرَهُ، فَقَالَ له الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيَّ، أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي؛ قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى، فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ. وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ، فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ، فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ، فَقَالَ: مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ، إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي، فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللَّهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ، فَآمَنَ بِاللَّهِ فَشَفَاهُ اللَّهُ، فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟ قَالَ: رَبِّي، قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ، فَأَخَذَهُ،فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ، فَجِيءَ بِالْغُلَامِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَيْ بُنَيَّ، قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ! فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا؛ إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ، فَأَخَذَهُ، فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ، فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى، فَدَعَا بِالْمِئْشَارِ، فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ. ثُمَّ جِيءَ بجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى، فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فأَبَى، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا، فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ، فإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَرَجَفَ بِهِمِ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ، فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلَّا فَاقْذِفُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ:كَفَانِيهِمُ اللَّهُ. فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ، قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي؛ فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي، فَجَمَع النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبْدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: باسْمِ اللهِ، رَبِّ



الْغُلَامِ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ. فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ؛ قَدْ آمَنَ النَّاسُ، فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ، فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا، أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ، فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا، فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فقالَ لَهَا الْغُلَامُ: يَا أُمَّهْ، اصْبِرِي؛ فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ}.



•وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ وَالسُّنَّةُ الْمُطَهَّرَةُ دَعْوَة للإيجابِيَّةِ وَإِلَيْكَ الْبَيَانُ:

•أوَّلًا:الْإِيجَابِيَّةُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:

–الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ كِتَابُ هِدَايَةٍ يَدْعُو إِلَى الْإِيجابِيَّةِ وَيَنْهَى عَنِ السَّلْبِيَّةِ وَيَغْرِسُ قِيَمَ الْإِيمَانِ وَالْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ وَحُبَّ الْبَذْلِ وَالْعَطاءِ فِي نُفُوسِ أَتْبَاعِهِ،وَمِنَ الْآيَاتِ الَّتِي تَدْعُو إِلَى الْإِيجَابِيَّةِ: (١)قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ}.(المائدة:٢).

–فَقَوْلُهُ تَعَالَى:{وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ}.



دَعْوَةٌ للإيجَابِيَّةِ وَتَحْذِيرٌ مِنَ السَّلْبِيَّةِ وَالْمَعْنَى:

لِيُعِنْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا عَلَى الْبِرِّ. وَهُوَ: اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ، مِنَ الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، مِنْ حُقُوقِ اللهِ وَحُقُوقِ الْآدَمِيِّينَ. وَالتَّقْوَى فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: اسْمٌ جَامِعٌ لِتَرْكِ كُلِّ مَا يَكْرَهُهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، مِنَ الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ. وَكُلُّ خَصْلَةٍ مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ الْمَأمُورِ بِفِعْلِهَا، أَوْ خَصْلَةٍ مِنْ خِصَالِ الشَّرِّ الْمَأمُورِ بِتَرْكِهَا، فَإِنَّ الْعَبْدَ مَأمُورٌ بِفِعْلِهَا بِنَفْسِهِ، وَبِمُعَاوَنَةِ غَيْرِهِ مِنْ إِخْوَانِهِ الْمُؤمِنينَ

عَلَيْهَا، بِكُلِّ قَوْلٍ يَبْعَثُ عَلَيْهَا وَيُنَشِّطُ لَهَا، وَبِكُلِّ فِعْلٍ كَذَلِكَ. { وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ } وَهُوَ التَّجَرُّؤ عَلَى الْمَعَاصِي الَّتِي يَأْثَمُ صَاحِبُهَا، وَيُحْرَجُ. { وَالْعُدْوَانِ } وَهُوَ التَّعَدِّي عَلَى الْخَلْقِ فِي دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ، فَكُلُّ مَعْصِيَةٍ وَظُلْمٍ يَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ كَفُّ نَفْسِهِ عَنْهُ، ثُمَّ إِعَانَةُ غَيْرِهِ عَلَى تَرْكِهِ.

{ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } عَلَى مَنْ عَصَاهُ وَتَجَرَّأَ عَلَى مَحَارِمِهِ، فَاحْذَرُوا الْمَحَارِمَ لِئَلَّا يَحِلّ بِكُمْ عِقَابُهُ الْعَاجِلُ وَالْآجِلُ.



(٢)وَقَالَ اللهُ تَعَالَى:{وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }.(التَّوبة:١٠٥).

–أيْ:أَنَّكُمْ مَهْمَا عَمِلْتُمْ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، فَإِنَّ اللّهَ مُطَّلِعٌ عَلَيْكُمْ، وَسَيُطْلِع رَسُولَهُ وَعِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أعْمَالِكُمْ وَلَوْ كَانَتْ بَاطِنَةً. –وَهَذِهِ الْمُرَاقَبَةُ الذَّاتِيَّةُ النَّابِعَةُ مِنَ الْمُرَاقَبَةِ الْإِلَهِيَّةِ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ تَحُثُّنَا بِلَا شَكٍّ عَلَى الْإِيجَابِيَّةِ وَعَلَى إِتْقَانِ الْعَمَلِ وَإِنْجَازِهِ بِالشَّيْءِ الَّذِي يُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ الْكَرِيمُ– صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– الذي دَائِمًا مَا يَحُثُّ صَحَابَتَهُ الْكِرَامَ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى وَوَجَدْنَاهُ فِي سِيرَتِهِمُ الْعَطِرَةِ حَتَّى فَتَحُوا الدُّنْيَا بِإِتْقَانِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمُ الْحَسَنَةِ النَّابِعَة مِنْ سِيرَةِ رَسُولِ اللهِ وَقَبْلَ ذَلِكَ نَابِعَة مِنْ الْأَخْلَاقِ الْقُرْآنِيَّةِ الرَّفِيعَةِ.



(٣)وَقَالَ اللهُ تَعَالَى فِي قِصَّةِ مَرْيَمَ–عَلَيْهَا السَّلَامُ–:{ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا(٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣) فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا}.(مريم:٢٥:٢٢).

–فَقَوْلُهُ تَعَالَى:{وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا}أيْ :



وَحرِّكِي نَحْوَكِ أوْ جِهَةِ الْيمِينِ أوِ الشِّمَالِ جِذْعَ النَّخْلَةِ (تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً) وَهُوَ مَا نَضِجَ وَاسْتَوَى مِنَ الثَّمَرِ (جَنِيّاً) أىْ : صَالِحاً للأخْذِ وَالاجْتِنَاءِ (فَكُلِي) مِنْ ذَلِكَ الرُّطَبِ (وَاشْرَبِي) مِنْ ذَلِكَ السَّرِيِّ ، (وَقَرِّي عَيْناً) أىْ : طِيبِى نَفْسًا بِوُجُودِى تَحْتَكِ ، وَاطْرُدِى عَنْكِ الْأَحْزَانَ . –يُقَالُ : قَرَّتْ عَيْنُ فُلَانٍ ، إذَا رَأَتْ مَا كَانَتْ مُتَشَوِّقَةً إلَى رُؤْيَتِهِ . مَأخُوذٌ مِنَ الْقَرَارِ بِمَعْنَى الاسْتِقْرَارِ وَالسُّكُونِ ، لأنَّ الْعَيْنَ إذَا رَأَتْ مَا تُحِبُّهُ سَكَنَتْ إلَيْهِ ، وَلَمْ تَنْظُرْ إلَى غَيْرِهِ .

–وَقَدْ أخَذَ الْعُلَمَاءُ مِنْ هَذِهِ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، أنَّ مُبَاشَرَةَ الْأسْبَابِ فِى طَلَبِ الرِّزْقِ أمْرٌ وَاجِبٌ وَأنَّ ذَلِكَ لَا يُنَافِى التَّوَكُّلَ عَلَى اللهِ ، لأنَّ الْمُؤْمِنَ يَتَعَاطَى الْأسْبَابَ امْتِثَالاً لأمْرِ رَبِّهِ مَعَ عِلْمِهِ وَيَقِينِهِ أنَّهُ لَا يَقَعُ فِى مُلْكِهِ – سُبْحَانَهُ – إلَّا مَا يَشَاؤُهُ وَيُرِيدُهُ،وَفِيهَا دَعْوَةٌ للإيجَابِيَّةِ. –وَهُنَا قَدْ أمَرَ اللهُ – تَعَالَى – مَرْيَمَ – عَلَى لِسَانِ مَوْلُودِهَا – بِأنْ تَهُزَّ النَّخْلَةَ لِيَتَسَاقَطَ لَهَا الرُّطَبُ ، مَعَ قُدْرَتِهِ – سُبْحَانَهُ – عَلَى إنْزَالِ الرُّطَبِ إلَيْهَا مِنْ غَيْرِ هَزٍّ أوْ تَحْرِيكٍ ، وَرَحِمَ اللهُ الْقَائِلَ : –ألَمْ تَرَ أنَّ اللهَ قَالَ لِمَرْيَم وَهُزِّى إلَيْكِ الْجِذْعَ يُسَاقِطُ الرُّطَبَ وَلَوْ شَاءَ أنْ تَجْنِيَهُ مِنْ غَيْرِ هَزِّهِ جَنَتْهُ ، وَلَكِن كُلّ شَىءٍ لَهُ سَبَبُ.

–كَمَا أخَذُوا مِنْهَا أنَّ خَيْرَ مَا تَأْكُلُهُ الْمَرْأةُ بَعْدَ وِلَادَتِهَا الرُّطَبُ ، قَالُوا : لأنَّهُ لَوْ كَانَ شَىءٌ أحْسَن للنُّفَسَاءِ مِنَ الرُّطَبِ لأطْعَمَهُ اللهُ – تَعَالَى– لِمَرْيَم .(انْظُرْ:"الوسيط"لطنطاوي).



(٤)وَقَالَ اللهُ تَعَالَى:{هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ }.(الملك:١٥). –قَالَ الْعَلَّامَةُ عَبْد الرَّحْمَن بْن نَاصِرٍ السَّعْدِيُّ–رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى–فِي تَفْسِيرِهَا:{أيْ: هُوَ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْأَرْضَ وَذَلَّلَهَا، لِتُدْرِكُوا مِنْهَا كُلَّ مَا تَعَلَّقَتْ بِهِ حَاجَتُكُمْ، مِنْ غَرْسٍ وَبِنَاءٍ وَحَرْثٍ، وَطُرُقٍ يُتَوَصَّلُ بِهَا إلَى الْأَقْطَارِ النَّائِيَةِ وَالْبُلْدَانِ الشَّاسِعَةِ، { فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا } أيْ: لِطَلَبِ الرِّزْقِ وَالْمَكَاسِبِ.{ وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ }

أيْ: بَعْدَ أنْ تَنْتَقِلُوا مِنْ هَذِهِ الدَّارِ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ امْتِحَانًا، وَبُلْغَةً يُتَبَلَّغُ بِهَا إلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ، تُبْعَثُونَ بَعْدَ مَوْتِكُمْ، وَتُحْشَرُونَ إلَى اللهِ، لِيُجَازِيَكُمْ بِأعْمَالِكُمُ الْحَسَنَةِ وَالسَّيِّئَةِ}.

–فَالْآيَةُ الْكَرِيمَةُ دَعْوَةٌ حَارَّةٌ للمُسْلِمِينَ لِكَىْ يَنْتَفِعُوا بِمَا فِى الْأرْضِ مِنْ كُنُوزٍ ، حَتَّى يَسْتَغْنُوا عَنْ غَيْرِهِمْ فِى مَطْعَمِهِمْ وَمَشْرَبِهِمْ وَمَلْبَسِهِمْ وَسَائِرِ أمُورِ مَعَاشِهِمْ ، فَإنَّهُ بِقَدْرِ تَقْصِيرِهِمْ فِى اسْتِخْرَاجِ



كُنُوزِهَا ، تَكُونُ حَاجَتُهُمْ لِغَيْرِهِمْ فَهِيَ دَعِوَةٌ للإيجَابِيَّةِ. –قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : قَالَ الإِمَامُ النَّوَوِيُّ– رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى– فِى مُقَدِّمَةِ الْمَجْمُوعِ :{إِنَّ عَلَى الْأُمَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ أَنْ تَعْمَلَ عَلَى اسْتِثْمَارِ وَإِنْتَاجِ كُلِّ حَاجَاتِهَا حَتَّى الْإِبْرَةِ ، لِتَسْتَغْنِىَ عَنْ غَيْرِهَا ، وَإِلَّا احْتَاجَتْ إِلَى الْغَيْرِ بِقَدْرِ مَا قَصَّرَتْ فِى الإِنْتَاجِ}. –هَذَا وَقَدْ أعْطَى اللهُ – تَعَالَى – الْعَالَمَ الإِسْلَامِيَّ الْأَوْلَوِيَّةَ فِى هَذَا كُلِّهِ،فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَحْتَلُّوا مَكَانَهُمْ ،وَيُحَافِظُوا عَلَى مَكَانَتِهِمْ ، وَيُشَيِّدُوا كَيَانَهُمْ بِالدِّينِ وَالدُّنْيَا مَعًا .



•وَهَذِهِ وَقْفَةٌ تَدَبُّرِيَّةٌ فِي ظِلَالِ آيَةٍ:

–قَالَ اللهُ تَعَالَى:{حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨)فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ}. (النَّمل:١٩:١٨).

–الْآيَةُ الَّتِي سَنَقِفُ مَعَهَا وَقْفَةً تَدَبُّرِيَّةً هِيَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى حَاكِيًا عَنِ عَبْدِهِ وَنَبِيِّهِ سُلَيْمَان عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأزْكَى السَّلَامِ:{فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ}.فَهِيَ دَعْوَةٌ للإيجَابِيَّةِ فِي أَسْمَى مَعَانِيهَا،وَفِي السُّورَةِ نَمُوذَجَانِ للإيجَابِيَّةِ فِي قِصَّةِ هُدْهُد سُلَيْمَانَ،وَ فِي قِصَّةِ النَّمْلَةِ مَعَ سُلَيْمَانَ.

(١)هَذِهِ الْآيَةُ وَرَدَتْ عَلَى مَائِدَةِ سُورَةِ(النَّمْلِ)وَهِيَ سُورَةٌ (مَكِّيَّةٌ)بِاتِّفَاقٍ وَفِي هَذَا دَلَالَة إِلَى أَنَّ الدَّعْوَى إِلَى إِتْقَانِ الْعَمَلِ وَحُسْنِ أَدَائِهِ هُوَ أَمْرٌ مُلَاصِقٌ لِكُلِّ دَعْوَى للإيمَانِ،فَلَا يُفْصَلُ الْقَوْلُ عَنِ الْعَمَلِ فِي أيِّ مَرْحَلَةٍ مِنْ مَرَاحِلِ الدَّعْوَةِ،وَلِذَلِكَ لَا نَجِدُ آيَةً فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَى يُذْكَرُ فِيهَا (أَهْلُ الْإِيمَانِ)إِلَّا وَيَتْبَعُهَا(وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)،مِنْ ذَلِكَ:

–قَوْلُ اللهِ تَعَالَى:{وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}.(البقرة:٢٥).



-وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى:{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا}.(الكهف:١٠٧).

-وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى:{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا}.(مريم:٩٦). -مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ فَإِنَّ أيَّ إيمَانٍ أوِ اعْتِقَادٍ لَا يَتْبَعُهُ عَمَلٌ فَهُوَ نَاقِصٌ يَحْتَاجُ إِلَى بُرْهَانٍ،لِذَلِكَ نَجِدُ شَرِيعَةَ الْإِسْلَامِ تَأمُرُ بِإِتْقَانِ الْعَمَلِ فِي كُلِّ شَيءٍ ،فِي التَّوْحِيدِ يَجِبُ أنْ يَكُونَ خَالِصًا مِنْ قَلْبِ الْعَبْدِ،فِي الْعِبَادَاتِ يجبُ إسْبَاغُ الْوُضُوءِ وَإِتْقَانِهِ،وَالصَّلَاةُ يَجِبُ إقَامَتُهَا بِخُشُوعٍ وَخُضُوعٍ،وَالزَّكَاةُ تَجِبُ عَلَى الْفَوْرِ وَتَصِلُ للمُسْتَحِقِّينَ،وَالصِّيَامُ يِجِبُ أنْ يَكُونَ خَالِصًا للهِ مَصْحُوبًا بِمَكَارِمِ الْأخْلَاقِ،وَالْحَجُّ يَجِبُ إتْمَامُهُ خَالِصًا للهِ تَعَالَى وعَلَى السُّنَّةِ،وَفِي الْمُعَامَلَاتِ يَجِبُ أنْ نَتَحَرّى الْحَلَالَ الطَّيِّبَ وَنَتَجَنَّبَ الْغِشَّ وَالْغَبْنَ وَأكْلَ أمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ،فَرَبُّنَا تَعَالَى كَتَبَ الْإحْسَانَ عَلَى كُلِّ شيءٍ.



(٢)سُورَةُ النَّمْلِ لَهَا ثَلَاثَةُ أسْمَاءٍ هِيَ:(سورة النَّمل)وَهُوَ أشْهَرُهَا،(سُورَةُ الْهُدْهُد)فَلَمْ يُذْكَرْ الْهُدْهُدُ إلَّا عَلَى مَائدَتِهَا،(سُورَةُ سُلَيْمَان)فَمَا ذُكِرَ فِيهَا مِنْ مُلْكِ سُلَيْمَان مُفَصَّلًا لَمْ يُذْكَرْ فِي سُورَةٍ غَيْرَهَا. -وَالْآيَةُ الَّتِي بَيْنَ أيْدِينَا لَهَا عِلَاقَةٌ وَثِيقَةٌ بِالْمُسَمّيَاتِ الثَّلَاثَةِ كَمَا سَيَأتِي الْبَيَانُ.



(٣)إذَا تَدَبَّرْنَا السُّورَةَ وَجَدْنَا لَهَا عِدَّةَ مَقَاصِدٍ رَئِيسَةٍ:

(أ)الاعْتِبَارُ بِأعْظَمِ مُلْكٍ أُوتِيَهُ نَبِيّ،وَهُوَ مُلْكُ (دَاوُد) وَ(سُلَيْمَانَ) ،وَأشْهَرِ أمَّةٍ أوتِيَتْ قُوَّةً وَهِيَ أمَّةُ (ثَمُود)،وَعِظَمِ مُلْكِ سَبَأ.

(ب)مِنْ مَقَاصِدِ السُّورَةِ بَيَانُ فَضِلِ الْعِلْمِ وَهَذَا وَاضِحٌ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعِ مِنْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَى:{وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ}.(النَّمل:٦).وَقَوْلُهُ تَعَالَى:{وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ}. (النَّمل:١٥).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى:{وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ}.(النَّمل:١٦).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى:{فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ}(النَّمل:٢٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى:{قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}.(النَّمل:٤٠).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى:{أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}.(النَّمل:٦١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى:{قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ}.(النّمل:٦٥). وَقَوْلُهُ تَعَالَى:{إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ}.(النَّمل:٧٨). وَقَوْلُهُ تَعَالَى:{حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}.(النَّمل:٨٤).

(ج)وَمِنْ مَقَاصِدِ السُّورَةِ شُكْرُ النِّعَمِ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى:{فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ}.(النّمل:١٩).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى:{وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ }.(النَّمل:٧٣).

(ج)وَمِنْ مَقَاصِدِ السُّورَةِ الْحِرصُ عَلَى الْعَمَلِ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى:{إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ}.(النَّمل:٤).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى:{وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }.(النَّمل:٩٠).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى:{وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}.(النَّمل:٩٣).

بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْقَصَصِ الْوَارِدَةِ فِي السُّورَةِ وَهِيَ مَلِيئَةٌ بِالْعَمَلِ نَحْوَ هِجْرَةِ نَبِيِّ اللهِ مُوسَى مَعَ أَهْلِهِ وَإِرْسَالِهِ إِلَى فِرْعَوْنَ،وَعَمَل جُنْدِ نَبِيِّ اللهِ سُلَيْمَانَ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ،وَعَمَل النَّمْلِ، وَعَمَل الْهُدْهُدِ،وَالْعَمَل فِي تَشْيِيدِ عَرْشِ بَلْقِيس،ثُمَّ الْعَمَل فِي إِحْضَارِهِ إِلَى نَبِيِّ اللهِ سُلَيْمَانَ،ثُمَّ تَنْكِير عَرْشِهَا إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ.



(د)مِنْ مَقَاصِدِ السُّورَةِ بَذْلُ النَّصِيحَةِ كَمَا فِي دَعْوَةِ وَنَصِيحَةِ مُوسَى لِقَوْمِهِ،ثُمَّ قَوْل النَّمْلَةِ للنَّمْلِ،ثُمَّ نَصِيحَة الْهُدْهُد،ثُمَّ نَصِيحَة صَالِح لِثَمُود،وَنَصِيحَة لُوطٍ إِلَى قَوْمِهِ،وَنَصِيحَة نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–لأُمَّتِهِ.

(هـ)مِنْ مَقَاصِدِ السُّورَةِ الْحِرْصُ عَلَى مَبْدَإِ الشُّورَى يَظْهَرُ ذَلِكَ فِي شُورى بَلْقِيس لِقَوْمِهَا فِي أَمْرِ سُلَيْمَان كَمَا حَكَى اللهُ قَوْلَهَا:{قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢)قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣)قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ}.(النّمل:٣٤: ٣٢).،وَكَذَلِكَ شُورى سُلَيْمَانَ لإِحْضَارِ عَرْشِ بَلْقِيس،كَمَا حَكَى اللهُ تَعَالَى قَوْلَ سُلَيْمَانَ:{قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨)قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩)قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}.(النَّمل:٤٠: ٣٨).

(و)مِنْ مَقَاصِدِ السُّورَةِ النِّظَامُ وَدِقَّتُهُ يَظْهَرُ ذَلِكَ فِي مَوَاطِنْ مِنَ السُّورَةِ مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠)لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١)فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢)إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ (٢٦) ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ}.(النَّمل:٢٧: ٢٠).

•وَالآيَةُ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِ تَدَبُّرِهَا جَمَعَتْ هَذِهِ الْمَحَاوِرَ كُلَّهَا، فَالْمِحْوَرُ الْأَوَّلُ وَالثَّانِي وَالثَّالِثُ،فِي قَوْلِهِ:{فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ }.(النّمل:١٩).

وَالْمِحْوَرُ الرَّابِعُ وَالْخَامِسُ،فِي قَوْلِهِ:{وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ }.(النّمل:١٩).



وَالْمِحْوَرُ السَّادِسُ فِي قَوْلِهِ:{وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ}.(النَّمل:١٩)فَالصَّالِحُونَ هُمْ أَهْلُ الشُّورَى. وَالْمِحْوَرُ السَّابِعُ فِي قَوْلِهِ:{فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا}.(النّمل:١٩)فَسَبَبُ الْآيَةِ تَعَجُبُ نَبِيِّ اللهِ سُلَيْمان مِنْ قَوْلِ النَّمْلَةِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى النِّظَامِ وَالدِّقَّةِ.



(٤)الْآيَةُ وَقَعَتْ بَيْنَ آيَتَيْنِ أَوْ نَاصِحَيْنِ،وَكُلُّ آيَةٍ مِنَ الْآيَتَيْنِ تَحْكِي عَمَلًا مَا أَرْوَعَهُ:

-أَوَّلُهُمَا:النَّمْلَةُ وَنَصِيحَتُهَا لأُمَّتِهَا:

-قَالَ اللهُ تَعَالَى:{حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}.(النَّمل:١٨).

-فَهَذَا نَبِيُّ اللهِ سُلَيْمَانُ-عَلَيْهِ السَّلَامُ-يَخْرُجُ يَوْمًا فِي جَيْشِهِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ ،فِي نِظَامٍ عَجِيبٍ لَا يَتَقَدَّمُ أَحَدٌ عَنْ مَوْضِعِهِ،فَهُمْ يُوزَعُونَ،حَتَّى إِذَا مَرَّ عَلَى وَادِي النَّمْلِ،سَمِعَ نَمْلَةً أَمَرَتْ وَحَذَّرَتْ وَاعْتَذَرَتْ عَنْ سُلَيْمَانَ وَجُنُودِهِ بِعَدَمِ شُعُورِهِمْ بِكُمْ لِصِغَرِ حَجْمِكُمْ،فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا،مُعْجَبًا مَسْرُورًا بِحِرْصِهَا عَلَى نَصِيحَةِ أُمَّتِهَا،بِالرَّأْيِ السَّدِيدِ وَالْأَمْرِ الْحَمِيدِ. -وَذِكْرُ النَّمْلَةِ فِي الْآيَةِ فِيهِ عِدَّةُ إِشَارَاتٍ تَتَعَلَّقُ بِإِتْقَانِ الْعَمَلِ وَهِيَ:النِّظَامُ،وَالتَّعَاوُنُ،وَبِنَاءُ الْقُرَى،وَشَقُّ الْأَنْفَاقِ إِلَى آخِرِ أَعْمَالِ أُمَّةِ النَّمْلِ.

-قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ-رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-فِي مِفْتَاحِ دَارِ السَّعَادَةِ ج١ص:٢٤٣:{فَتَكَلَّمَتْ بِعَشْرَةِ أَنْوَاعٍ مِنَ الْخِطَابِ فِي هَذِهِ النَّصِيحَةِ النِّدَاءِ وَالتَّنْبِيهِ وَالتَّسْمِيَةِ وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالتَّحْذِيرِ وَالتَّخْصِيصِ وَالتَّفْهِيمِ وَالتَّعْمِيمِ وَالاعْتِذَارِ فَاشْتَمَلَتْ نَصِيحَتُهَا مَعَ الِاخْتِصَارِ عَلَى هَذِهِ الْأَنْوَاعِ الْعَشْرَةِ وَلِذَلِكَ أَعْجَبَ سلميانَ قَوْلُهَا وَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْهُ وَسَأَلَ اللهَ أَنْ يُوزِعَهُ شُكْرَ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِ لَمَّا سَمِعَ كَلَامَهَا وَلَا تُسْتَبْعَدُ هَذِهِ الْفِطْنَةُ مِنْ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ تُسَبِّحُ بِحَمْدِ رَبِّهَا كَمَا فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-قَالَ:{ نَزَلَ نَبِيٌّ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ تَحْتَ شَجَرَةٍ فَلَدَغَتْهُ نَمْلَةٌ فَأَمَرَ بِجَهَازِهِ فَأُخْرِجَ مِنْ تَحْتِهَا ثُمَّ أَمَرَ بِبَيْتِهَا فَأُحْرِقَ بِالنَّارِ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ فَهَلَّا نَمْلَةً وَاحِدَةً}. (الحديث أخرجه البخاريُّ برقم"٣١٤١").





-ثانيهما:الْهُدْهُدُ وَنصِيحَتُهُ:

فَهَذَا الْهُدْهُدُ الَّذِي غَابَ عَنْ بَصَرِ نَبِيِّ اللهِ سُلَيْمَانَ–عَلَيْهِ السَّلَامُ–وَلَمْ يَكُنْ فِي مَحِلِّ خِدْمَتِهِ،وَفِي هَذَا دَلَالَة عَلَى قُوَّةِ وَنِظَامِ مُلْكِ نَبِيِّ اللهِ سُلَيْمَانَ–عَلَيْهِ السَّلَامِ–وَانْتِظَامِ جُنُودِهِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ،وَإِدَارَةِ نَبِيِّ اللهِ سُلَيْمَانَ–عَلَيْهِ السَّلَامُ–لِتِلْكَ الْمَمْلَكَةِ الْوَاسِعَةِ،وَقَدْ أتَى الْهُدْهُدُ بِخَبَرِ بَلْقِيس مَلَكَةِ سَبَأَ وَقَالَ كَمَا يَحْكِي الْقُرْآنُ:

{إِنِّي وَجدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ}.(النَّمل:٢٣).

-ثُمَّ يَذْكُرُ قِصَّتَهُ فَيَقُول:{وَجدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ}.(النَّمل:٢٤).

-ثُمَّ يُظْهِرُ النَّصِيحَةَ وَالْغَيْرَةَ فَيَقُول:{أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩}. (النَّمل:٢٦:٢٥).

-ثُمَّ ذَكَرَ بَقِيَّةَ الْقِصَّةِ وَالَّتِي انْتَهَتْ بِإِسْلَامِ بَلْقِيس مَلِكَة سَبأ،بِسَبَبِ نَصِيحَةِ وَعَمَلِ الْهُدْهُد.

•إِذَنْ الْآيَةُ الَّتِي بَيْنَ أيْدِينا جاءَتْ بَيْنَ آيَتَيْنِ:

(أ)الْآيَةُ الْأولَى لِنَمْلَةٍ تَعِيشُ فِي الْأَرْضِ،وَالْآيَةُ الثَّانِيَةُ لِطَائِرٍ يَسْبَحُ فِي السَّمَاءِ.

(ب)الْآيَةُ الْأُولَى فِيهَا نَصِيحَةٌ لإنْقَاذِ أَمَّةِ النَّمْلِ مِنَ الْمَوْتِ وَالْهَلَاكِ،وَالْآيَةُ الثَّانِيَةُ فِيها نَصِيحَةٌ وَغَيْرَةٌ لإنْقَاذِ مَلَكَةِ سَبَأ وَقَوْمِهَا.

(ج)الْآيَةُ الْولَى عَلِمَ نَبِيُّ اللهِ سُلَيْمَانُ–عَلَيْهِ السَّلَامُ–بِهَا،وَالْآيَةُ الثَّانِيَةُ عَلِمَ بِهَا الْهُدْهُدُ وَهُوَ أَحَدُ جُنُودِ سُلَيْمَانَ.

(د)أثْمَرَتِ النَّصِيحَتَانِ:فَأُنْقِذَ النَّمْلُ،وَأسْلَمَتْ بِلْقِيسُ مَلِكَةُ سَبَأ وَأسْلَمَ قَوْمُهَا. (و)الْآيَةُ الْأولَى بَيَانٌ للعَمَلِ الدَّائمِ لأمَّةِ النَّمْلِ،وَالْآيَةُ الثَّانِيَةُ بَيَانٌ لِعَمَلِ الْهُدْهُدِ الَّذِي يَقْطَعُ الْمَسَافَةِ مِنَ الشَّامِ إلَى الْيَمَنِ فِي جُهْدٍ جَهِيدٍ مِنْ أجْلِ التَّوْحِيدِ وَالدَّعْوَةِ إلَى اللهِ تَعَالَى.

•وَوُقُوعُ الْآيَةِ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ لإظْهَارِ قِيمَةِ الْعَمِلِ وَضَرُورَةِ إتْقَانِهِ وَسُؤَالِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ التَّوْفِيق للعَمَلِ الصَّالِحِ وَهَذَا مَا دَعَا بِهِ نَبِيُّ اللهِ سُلَيْمَانُ–عَلَيْهِ السَّلَامُ–فِي الْآيَةِ:{..وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ }.(النَّمل:١٩)فَوَصْفُ الْعَمَل بِالصَّالِحِ أيْ:الْمُتْقَنِ،فَوُقُوعُ الْآيَةِ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ يَفِيدُ أيْضًا:



أنَّ الْعَمَلَ الدَّعوِيَّ يَحْتَاجُ إلَى إتْقَانٍ وَنِظَامٍ وَدِقَّةٍ،وأنَّ الْعَمَلَ يَنْبَغِي أنْ يَقُومَ عَلَى أسَاسٍ مِنَ الْعِلْمِ،وَأنَّ الْعِلَمَ وَإتْقَانَ الْعَمَلِ أثْمرا مُلْكاً عَظِيمًا وَحَضَارَةً أبْهَرَتْ مَلِكَةَ سَبَأ عِنْدَمَا أقْبَلَتْ عَلَى نَبِيِّ اللهِ سُلَيْمَانَ–عَلَيْهِ السَّلَامُ–،وَفِيهَا الْعَمَلُ الدَّؤوبُ لِجُنْدِ نَبِيِّ اللهِ سُلَيْمَانَ –عَلَيْهِ السَّلَامُ–،وَحِكْمَةُ نَبِيِّ اللهِ سُلَيْمَانَ فِي إدَارَةِ مَمْلَكَتِهِ،حَقًّا إنَّ الْإيجَابِيَّةَ لُبُّ الْعُبُودِيَّةِ وَسَبِيلُ تَقَدُّمِ الْبَشَرِيَّةِ.



•ثَانِيًا:الْإيجَابِيَّةُ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ: –

–السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ دَعْوَةٌ للإيجَابِيَّةِ وَإِلَيْكَ الْبَيَانُ:

(١)أخْرَجَ الْإمَامُ أحْمَد–رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى–فِي مُسْنَدِهِ بِرَقَمِ (١٢٥١٢)وَالْإمَامُ الْبُخَارِيُّ–رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى–فِي الْأدَبِ الْمُفْرَدِ بِرَقَمِ(١/١٦٨) مِنْ حَدِيثِ أنَسِ بْنِ مَالِكٍ–رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ–قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–:

{إنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإنِ اسْتَطَاعَ أنْ لَّا تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا}. –لَقَدْ شَجَّعَتِ الشَّرِيعَةُ الْإسْلَامِيَّةُ عَلَى إعْمَارِ الْأرْضِ وَزِرَاعَتِهَا، كَمَا رَغَّبَتِ الْمُسْلِمَ لِيَكُونَ إيجَابِيًّا فِي كُلِّ أحْوَالِهِ، وَأنْ يَكُونَ نَافِعًا لِنَفسِهِ وَلِغَيْرِهِ،وَقَدْ حَثَّ النَّبِيُّ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–عَلَى كُلِّ فِعْلٍ مِنْ أفْعَالِ الْبِرِّ وَالْإحْسَانِ وَالصَّدَقَةِ وَالنَّفْعِ للغَيْرِ حَتَّى وَلَوْ لَمْ يَرَ الْفَاعِلُ ثَمَرَتَهُ، كَمَا قَالَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ:{إنْ قامَتِ السَّاعَةُ}، أيْ:

إذَا ظَنَّ أحَدُكُمْ ظَنًّا أكِيدًا أنَّ الْقِيَامَةَ بِأشْرَاطِهَا وَمُوَاصَفَاتِهَا قَدْ قَامَتْ {وَفِي يَدِ أحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ}، أيْ: نَبْتَةٌ صَغِيرَةٌ مِنَ النَّخْلِ،{فَإنِ اسْتَطَاعَ أنْ لَّا تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا} أيْ: يَزْرَعُهَا فِي التُّرْبَةِ، وَلَا يَتْرُكُ عَمَلَ الْخَيْرِ وَالنَّفْعِ، وَهَذِهِ مُبَالَغَةٌ وَحَثٌّ عَلَى فِعْلِ الْخَيْرِ حَتَّى فِي أحْلَكِ الظُّرُوفِ، وَلَوْ ظَنَّ صَاحِبُهُ انْعِدَامَ الانْتِفَاعِ بِهِ، وَمِنْ أنْوَاعِ الْخَيْرِ غَرْسُ الْأَشْجَارِ وَحَفْرُ الْآبَارِ لِتَبْقَى الدُّنْيَا عَامِرَةً إلَى آخِرِ أمَدِهَا، فَكَمَا غَرَسَ غَيْرُكَ مَا شَبِعْتَ بِهِ؛ فَاغْرِسْ لِمَنْ يَجِيءُ بَعْدَكَ،وَقَدْ ذَكَرَ النَّبِيُّ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –فِي أحَادِيثَ أُخْرَى فَضْلَ الْغَرْسِ وَالزَّرْعِ، لِمَا فِيهِ مِنْ إطْعَامِ النَّاسِ وَالطَّيْرِ وَالدَّوَابِّ، وَلِمَا فِيهِ مِنْ تَوْفِيرِ الْأقْوَاتِ، وَكَمَا يَدُلُّ هَذَا الْحَدِيثُ عَلَى أنَّ عَمَلَ الْإنْسَانِ الْخَيْرَ بِيَدِهِ أَمْرٌ مَحْمُودٌ.وَفِي الْحَدِيثِ: الْحَضُّ عَلَى اسْتِمْرَارِيَّةِ الْعَمَلِ فِي الْخَيْرِ إلَى آخِرِ لَحْظَةٍ فِي الْعُمُرِ .



(٢)وَأخْرَجَ الْإِمَامُ ابْنُ حِبَّانَ–رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى–فِي صَحِيحِهِ بِرَقِمِ (٧٣١)مِنْ حَدِيثِ عَمْرُو بْن أُمَيَّةَ–رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ–قَالَ: قَالَ رجُلٌ لِلنَّبِيِّ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– : أُرسِلُ نَاقَتِي وَأتَوَكَّلُ؟قَالَ:{اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ }. –فَالتَّوكُّلُ عَلَى اللهِ مِنْ مَعَالِي مَرَاتِبِ الْإِيمَانِ؛ حَيْثُ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}.(آل عمران:١٢٢)، وَمِنْ أَسْبَابِ الظَّفَرِ بِحُبِّ اللهِ تَعَالَى؛ حَيْثُ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}.(آل عمران:١٥٩)، وَمِن أَسْبَابِ الرِّزْقِ وَكِفَايَةِ اللهِ الْعَبْدَ؛ حَيْثُ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

{وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}.(الطّلاق:٣)، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ أَمَرَ الشَّرْعُ بِالْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ تَرْبِيَةً عَلَى الْإِيجَابِيَّةِ؛وَحَتَّى لا يَتَحَوَّلَ التَّوكُّلُ إِلَى تَوَاكُلٍ وَكَسَلٍ.وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ يُخْبِرُ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ–رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ–: أنَّ رجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–مُسْتَفْهِمًا أيُّ الْفِعْلَيْنِ يُوَافِقُ التَّوَكُّلَ؛ هَلْ هُوَ رَبْطُ النَّاقَةِ فِي مَكَانٍ، أوْ تَرْكُهَا عَلَى حَالِهَا ثُمَّ السَّعْيُ وَالذَّهَابُ لأَحْوَالِهِ؟ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–:{اعْقِلْهَا وتَوَكَّلْ}، أيْ:

ارْبِطْ تِلْكَ النَّاقَةَ فِي الْمَكَانِ الَّذِي تَرَكْتَهَا فِيهِ حَتَّى لَا تَذْهَبَ وَتَضِلَّ، ثُمَّ تَوَكَّلْ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَاسْعَ فِي حَاجَتِكَ، وَقِيلَ: اعْقِلْهَا، أيْ: شُدَّ رُكْبَةَ نَاقَتِكَ مَعَ ذِرَاعَيْهَا بِحَبْلٍ.وَفِي الْحَدِيثِ: بَيَانُ أنَّ الْأَخْذَ بِالْأَسْبَابِ لَا يُنَافِي التَّوَكُّلَ؛ لأنَّ التَّوَكُّلَ يَخُصُّ الْقَلْبَ، وَالتَعَرُّضَ بِالْأَسْبَابِ أَفْعَالٌ تَخُصُّ الْبَدَنَ، فَلَا تَنَاقُضَ.

(٣)وَأخْرَجَ الْإِمَامُ النَّسَائِيُّ–رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى–فِي سُنَنِهِ بِرَقِمِ (٣١٧٦) عَنْ رَجُلٍ مِنْ أصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ–رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ–قَالَ:{لَمَّا أمرَ النَّبيُّ بحفْرِ الْخَنْدَقِ ، عَرَضَتْ لَهُمْ صَخْرَةٌ حَالَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْحَفْرِ ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ، وَأَخَذَ الْمِعْوَلَ ، وَوَضَعَ رِدَاءَهُ نَاحِيَةَ الْخَنْدَقِ ، وَقَالَ :{تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا، لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، فَنَدَرَ ثُلُثُ الْحَجَرِ ، وَسَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ قَائِمٌ يَنْظُرُ ، فَبَرَقَ مَعَ ضَرْبَةِ رَسُولِ اللَّهِ بَرْقَةٌ ، ثُمَّ ضَرَبَ الثَّانِيَةَ ، وَقَالَ : تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا، لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، فَنَدَرَ الثُّلُثُ الْآخَرُ ، فَبَرَقَتْ بَرْقَةٌ فَرَآهَا سَلْمَانُ ، ثُمَّ ضَرَبَ الثَّالِثَةَ ، وَقَالَ : تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا، لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، فَنَدَرَ الثُّلُثُ الْبَاقِي ، وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ، فَأَخَذَ رِدَاءَهُ وَجَلَسَ ، قَالَ سَلْمَانُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، رَأَيْتُكَ

حِينَ ضَرَبْتَ ، مَا تَضْرِبُ ضَرْبَةً إِلَّا كَانَتْ مَعَهَا بَرْقَةٌ ، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ : يَا سَلْمَانُ ، رَأَيْتَ ذَلِكَ فَقَالَ : أي وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : فَإِنِّي حِينَ ضَرَبْتُ الضَّرْبَةَ الْأولَى رُفِعَتْ لِي مَدَائِنُ كِسْرَى وَمَا حَوْلَهَا وَمَدَائِنُ كِثِيرَةٌ ، حَتَّى رَأَيْتُهَا بِعَيْنِيَّ قَالَ لَهُ مَنْ حَضَرَهُ مِنْ أصْحَابِهِ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، ادْعُ اللَّهَ أنْ يَفْتَحهَا عَلَيْنَا وَيَغنِّمَنَا دِيَارَهُمْ ، وَيُخَرِّب بِأيْدِينا بلَادَهُمْ ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ بِذَلِكَ ، ثُمَّ ضَرَبْتُ الضَّرْبَةَ الثَّانِيَةَ ، فَرُفِعَتْ لِي مَدَائِنُ قَيْصَرَ وَمَا حَوْلَهَا ، حَتَّى رَأَيْتُهَا بِعَيْنَيَّ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، ادْ عُ اللَّهَ أنْ يَفْتَحهَا عَلَيْنَا وَيُغنِّمَنَا دِيَارَهُمْ ، وَيُخَرِّب بِأَيْدِينَا بِلَادَهُمْ ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ بِذَلِكَ ، ثُمَّ ضَرَبْتُ الثَّالِثَةَ ، فرُفِعَتْ لِي مَدَائِنُ الْحَبَشَةِ وَمَا حَوْلَهَا مِنَ الْقُرَى ، حَتَّى رَأَيْتُهَا بِعَيْنَيَّ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : عِنْدَ ذَلِكَ دَعُوا الْحَبَشَةَ مَا وَدَعُوكُمْ ، وَاتْرُكُوا التُّرْكَ مَا تَرَكُوكُمْ}.

-فَمُشَارَكَةُ النَّبِيِّ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-بِنَفْسِهِ فِي حَفْرِ الْخَنْدَقِ تَرْجَمَةٌ لأسْمَى مَعَانِي الْإِيجَابِيَّةِ،وَفِي الْحَدِيثِ: عَلَامَةٌ مِنْ عَلَامَاتِ صِدْقِ نُبُوَّتِهِ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.،وَفِيهِ: تَأْيِيدُ اللهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-بِالْمُبَشِّرَاتِ .

(٤)وَأخْرَجَ الْإِمَامُ أحْمَدُ-رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-فِي مُسْنَدِهِ بِرَقَمِ (٢٩٠٩)مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ-رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا-قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:

{لَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ ، وَكُلُّ حِلْفٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَلَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً. وَمَا يَسُرُّنِي أنَّ لِي حُمْرَ النَّعَمِ، وَأنِّي نَقَضْتُ الْحِلْفَ الَّذِي كَانَ فِي دَارِ النَّدْوَةِ}. -لَقَدْ أقَرَّ الْإِسْلَامُ كُلَّ خَيْرٍ يَتَوَافَقُ مَعَ مَبَادِئِهِ، وَهَدَمَ كُلَّ مَا يُخَالِفُ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِ الْجَاهِلِيَّةِ.

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ يَقُولُ النَّبِيُّ- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:{لَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ}، وَالْحِلْفُ هُوَ عَقْدُ النُّصْرَةِ وَالتَّعَاوُنِ بَيْنَ فَرْدَيْنِ، أوْ قَبِيلَتَيْنِ، أوْ جَمَاعَتَيْنِ؛ وَالْمُرَادُ بِالْحِلْفِ الْمَنْفِيِّ هُنَا حِلْفُ التَّوَارُثِ، وَالْحِلْفُ عَلَى مَا مَنَعَ الشَّرْعُ مِنْهُ، وَقِيلَ:

إِنَّمَا نُفِيَ الْحِلْفُ فِي الْإِسْلَامِ؛ لأنَّ الْإِسْلَامَ يُوجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ لِأخِيهِ الْمُسْلِمِ مِنَ التَّعَاوُنِ وَالْأُخُوَّةِ وَالتَّنَاصُرِ مَا هُوَ فَوْقَ الْمَطْلُوبِ مِنَ الْحِلْفِ؛ فَلَا مَعْنَى لِعَقْدِ الْحِلْفِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ،{وَكُلُّ حِلْفٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَلَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً}، وَكَانَ أهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَتَعَاهَدُونَ عَلَى التَّوَارُثِ وَالتَّنَاصُرِ فِي الْحُرُوبِ وَأدَاءِ الضَّمَانَاتِ الْوَاجِبَةِ عَلَيْهِمْ، وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ فَنَهَى النَّبِيُّ- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَنْ إِحْدَاثِهِ فِي الْإِسْلَامِ، وَأقَرَّ مَا كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ؛ وَفَاءً بِالْعُهُودِ، وَحِفْظًا للحُقُوقِ وَالذِّمَمِ، أوِ الْمَقْصُودُ



بِهَذَا النَّهْيِ مَا كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ التَّحَالُفِ عَلَى النُّصْرَةِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَأَمَّا الْإِسْلَامُ فَقَدْ ثَبَّتَ مَا يَكُونُ فِي الْخَيْرِ. {وَمَا يَسُرُّنِي أَنَّ لِي حُمْرَ النَّعَمِ} وَهِيَ إبلٌ حَمْرَاءُ، وَكَانَتْ مِنْ أَفْضَلِ أَنْوَاعِ الْمَالِ عِنْدَ الْعَرَبِ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لَا يَنْكُثُ عَهْدًا وَحِلْفًا وَلَوْ كَانَ فِي مُقَابِلِ ذَلِكَ أَنْفَسُ الْأَمْوَالِ، {وَأَنِّي نَقَضْتُ الْحِلْفَ الَّذِي كَانَ فِي دَارِ النَّدْوَةِ} وَهُوَ حِلْفُ الْمُطَيِّبِين، وَكَانَ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، وَقَدْ حَضَرَهُ النَّبِيُّ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–وَهُوَ صَغِيرٌ مَعَ أَعْمَامِهِ؛ حَيْثُ تَحَالَفَتْ قُرَيْشٌ –وَمِنْهُمْ بَنُو هَاشِمٍ، وَبَنُو زُهْرَةَ، وَبَنُو تَمِيمٍ، وَرُؤُسَاءُ النَّاسِ– عَلَى نُصْرَةِ الْمَظْلُومِ، وَكَفِّ الظَّالِمِ، وَوَضَعُوا أَيْدِيَهُمْ فِي قَصْعَةٍ مَمْلُوءَةٍ بِالطِّيبِ وَالْعِطْرِ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَ حِلْفَ الْمُطَيِّبِينَ، فَهَذَا إِذَا وَقَعَ فِي الْإِسْلَامِ كَانَ تَأْكِيدًا لِمُوجِبِ الْإِسْلَامِ، وَتَقْوِيَةً لَهُ، وَأَمَّا الْحِلْفُ الَّذِي أَبْطَلَهُ فَهُوَ تَحَالُفُ الْقَبَائِلِ بِأَنْ يَقُومَ بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ وَيَنْصُرَهُ، وَيُحَارِبَ مَنْ حَارَبَهُمْ، وَيُسَالِمَ مَنْ سَالَمَهُمْ .



–فَمُشَارَكَةُ النَّبِيِّ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–فِي حِلْفِ الْفُضُولِ (الْمُطَيِّبِين)قَبْلَ الْبِعْثَةِ دَلِيلٌ عَلَى الْإِيجَابِيَّةِ فِي أَسْمَى مَعَانِيهَا. (٥)وَأَخْرَجَ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ–رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى–فِي صَحِيحِهِ بِرَقَمِ (٤٨٩)مِنْ حَدِيثِ رَبِيعَةَ بْنِ كَعْبٍ الْأَسْلَمِيِّ–رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ–قَالَ: كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ فَقَالَ لِي :{سَلْ فَقُلْتُ أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ قَالَ:أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؟ قُلْتُ :هُوَ ذَاكَ قَالَ :

فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ}. –كَانَ النَّبِيُّ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–يُحِبُّ أَصْحَابَهُ وَيُرْشِدُهُمْ إِلَى كُلِّ الْخَيْرِ وَإِلَى أُمُورٍ كَثِيرَةٍ تُدْخِلُ الْجَنَّةَ، وَكَانَ الصَّحَابَةُ –رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ–أَعْظَمَ النَّاسِ حُبًّا لِلنَّبِيِّ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ،وَحِرْصًا عَلَى مُرَافَقَتِهِ، وَكَانُوا حَرِيصِينَ عَلَى سُؤَالِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–عَنِ الْخَيْرِ،وَالتَّعَرُّفِ عَلَى مَعَالِي الْأُمُورِ الَّتِي تُدْخِلُ الْجَنَّةَ وَتُبْعِدُ عَنِ النَّارِ، وَتَكُونُ سَبَبًا لِمُرَافَقَتِهِ فِي الْجَنَّةِ. –وَهَذَا الْحَدِيثُ يُوَضِّحُ أَحَدَ أَسْبَابِ الْفَوْزِ بِالْجَنَّةِ وَمُرَافَقَةِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–فِيهَا؛ وَفِيهِ يَقُولُ رَبِيعَةُ بْنُ كَعْبٍ الْأَسْلَمِيُّ–رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ–:{كُنْتُ أَبِيتُ}، أَيْ: مِنَ اللَّيْلِ،{مَعَ رَسُولِ اللهِ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ}، أَيْ: أُحْضِرُ لَهُ الْمَاءَ الَّذِي يَتَوَضَّأُ بِهِ وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي أَمْرِ الطَّهَارَةِ وَغَيْرِهَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–

:{سَلْنِي}، أيِ: اطْلُبْ مِنِّي حَاجَتَكَ، أوْ مَا تُرِيدُهُ، قَالَ رَبِيعَةُ:{مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ}، أيْ: أطْلُبُ مُرَافَقَتَكَ وَصُحْبَتَكَ فِي الْجَنَّةِ،فَقَالَ النَّبِيُّ- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:{أوْ غَيْرَ ذَلِكَ؟!}، أيْ: هَلْ تَطْلُبُ طَلَبًا غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أمُورِ الدُّنْيَا أوِ الْآخِرَةِ، وَلَعَلَّ فِي هَذَا مُرَاجَعَةً مِنَ النَّبِيِّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-لَهُ فِي طَلَبِهِ؛ حَتَّى يَتَأكَّدَ مِنْ إصْرَارِهِ عَلَيْهِ، قَالَ رَبِيعَةُ: {هُوَ ذَاكَ}، أيْ: أنْ أكُونَ رَفِيقَكَ فِي الْجَنَّةِ، وَلَيْسَ لِي غَيْرُهُ،فَقَالَ النَّبِيُّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:{فَأعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ}، أيْ: أعِنِّي عَلَى هَذَا الْأمْرِ حَتَّى يُحَقِّقَهُ اللهُ لَكَ، فَالْزَمْ كَثْرَةَ السُّجُودِ للهِ فِي الصَّلَاةِ فِي الْفَرَائِضِ وَالنَّوَافِلِ، وَهَذَا السُّجُودُ سَبَبٌ لدُخُولِ الْجَنَّةِ وَمُرَافَقَتِي فِيهَا.وَفِي الْحَدِيثِ :الْحَثُّ عَلَى كَثْرَةِ السُّجُودِ وَالتَّرْغِيبِ فِيهِ وَفِي ذَلِكَ دَعْوَة للإيجابِيَّةِ وَتَحْقِيق الْعُبُودِيَّةِ.وَفِيهِ: بَيَانُ حِرْصِ الصَّحَابةِ عَلَى السُّؤَالِ عَنْ مَعَالِي الْأمُورِ وَمَا يُدْخِلُ الْجَنَّةَ. (٦)وَأخْرَجَ الْإمَامُ الْبُخَارِيُّ-رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-فِي صَحِيحِهِ بِرَقَمِ (١١٢١)مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْن عُمَرَ-رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا-قَالَ:كَانَ الرَّجُلُ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-،إذَا رَأَى رُؤْيَا قَصَّهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-فَتَمَنَّيْتُ أنْ أرَى رُؤْيَا، فَأقُصَّهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَكُنْتُ غُلَامًا شَابًّا، وَكُنْتُ أنَامُ فِي الْمَسْجِدِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَرَأَيْتُ فِي النَّوْمِ كَأنَّ مَلَكَيْنِ أخَذَانِي، فَذَهَبَا بِي إلَى النَّارِ، فَإذَا هِيَ مَطْوِيَّةٌ كَطَيِّ الْبِئْرِ وَإذَا لَهَا قَرْنَانِ وَإذَا فِيهَا أُنَاسٌ قَدْ عَرَفْتُهُمْ، فَجَعَلْتُ أقُولُ: أعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ، قَالَ: فَلَقِيَنَا مَلَكٌ آخَرُ فَقَالَ لِي: لَمْ تُرَعْ، فَقَصَصْتُهَا عَلَى حَفْصَةَ فَقَصَّتْهَا حَفْصَةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-فَقَالَ: نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ، لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ فَكَانَ بَعْدُ لَا يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ إلَّا قَلِيلًا}. -وَفِي الْحَدِيثِ:دَعْوَةُ النَّبِيِّ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-عَبْدَ اللَّهِ بْن عُمَرَ-رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا- للإيجَابِيَّةِ وَالْحِرْصِ عَلَى قِيَامِ اللَّيْلِ وَكَثْرَةِ الْعَمَلِ الَّذِي فِيهِ نَجَاتُهُ. (٧)وَأخْرَجَ الْإمَامُ الْحَاكِمُ-رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-فِي الْمُسْتَدْرَك بِرَقَم (٧٨٤٦) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ-رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا -قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:

{اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ : شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ} .

-هَذَا الْحَدِيثُ دَعْوَةٌ للإيجَابِيَّةِ وَاغْتِنَامِ الْفُرَصِ فِي الْحَيَاةِ؛ للعَمَلِ للآخِرَةِ بِمَلْءِ الْأوْقَاتِ بِالطَّاعَاتِ؛ لأنَّهَا هِيَ عُمُرُ الْإنْسَانِ فِي الدُّنْيَا، وَذَخِيرَتُهُ فِي الْآخِرَةِ.



•اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ غَيْر ضَالِّينَ وَلَا مُضِلِّينَ، اللَّهُمَّ يَا ذَا الْأَمْرِ الرَّشِيدِ وَالْحَبْلِ الشَّدِيدِ أسْأَلُكَ الْأَمْنَ يَوْمَ الْوَعِيدِ وَالْجَنَّةَ يَوْمَ الْخُلُودِ مَعَ الْمُقَرَّبِينَ الشُّهُودِ، وَآخِرُ دَعْوَانَا أنِ الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

•كَتَبَهُ: خَادِمُكُمْ وَمُحِبُّكُمْ فِي اللَّهِ أَبُو أحْمَد سَيِّد عَبْد الْعَاطِي بْن مُحَمّد الذَّهَبِيُّ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَعَفَا عَنْهُ.



تمت بحمد الله

مع تحيات

موسوعة اعرف دينك للعلوم الشرعية

